السلطة والتسلط عند كارل ياسبرس
أو جدلية الحرية والعنف في الفكر السياسي المعاصر

الدكتور جمال مفرج(*)

كان الناس في الأزمنة السابقة يطالبون بحقهم في الحرية ضد السلطة الغاشمة، وفي القرن التاسع عشر انتهى الكفاح، في أوربا، ضد تلك السلطة، ونال كل فرد قدرا من الحرية لم يسبق له مثيل في التاريخ.

وإذن فلم يعد هناك، حسب ياسبرس، موجب لأن نتساءل عن الكيفية التي نقود بها الكفاح ضد السلطة، وإنما الذي يجب أن نتساءل عنه هو كيفية الاهتداء إلى مصدر سلطة صحيحة؟(١)، أو كيفية حماية الحرية من العنف والإرهاب عن طريق سلطة حقيقية؟.

إن البحث عن سلطة حقيقية يتطلب، أولا، تحديد ماهية السلطة. فلنحاول إذن أن نحيط بمعنى هذه الكلمة.

لقد جرت العادة، حسب ياسبرس، بتحليل معاني السلطة من وجهتي النظر الاجتماعية والنفسية. فمثلا نجد «ماكس فيبر» Max Weber يتحدث عن ثلاثة أنواع من السلطة: السلطة القانونية؛ وهي ترتبط بالنظام القائم، ويتولاها من يحدده الترتيب التصاعدي للوظائف، والسلطة التقليدية؛ وهي ترتبط بالتقاليد، ويتولاها الذي تفرضه

(*) قسم الفلسفة - كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية - جامعة منتوري - (الجزائر).

(١) كارل ياسبرس، مدخل إلى الفلسفة، ترجمة محمد فتحي الشنيطي، مكتبة القاهرة الحديثة، ١٩٦٧، ص ص ٢٩١-٢٩٢.

تلك التقاليد، والسلطة الموهوبة؛ وهي ترتبط بفرد معين، ويتولاها زعيم واحد يفرض نفسه على الجميع[١].

إن هذه النماذج المختلفة للسلطة تعين على توضيح معاني السلطة، إلا أن المعرفة التي نصل إليها تبقى قاصرة، في نظر ياسبرس، والدراسة الاجتماعية والنفسية وإن كانت موضوعية ولها قيمتها إلا أنها غير كافية. والنفاذ إلى ماهيتها لا يتم، في نظره، إلا من خلال التحليل الفلسفي.

وإذا كان من الضروري اللجوء إلى التنظير الفلسفي لإدراك ماهية السلطة، فإنه من الضروري البدء بالبحث عن أصلها. إن كلمة «السلطة» Autorité مشتقة من الكلمة اللاتينية Auctor التي تعني الشخص الذي ينشئ شيئا ما ويرعاه وينميه، وكلمة Auctoritas تعبر عن قوة الإنشاء والرعاية والتنمية؛ أي أن الإنسان عندما ينشئ شيئا فهو يرغب في دوام هذا الشيء، وعندما يعمل فهو يرغب في أن يكون لعمله قيمة[٢].

والمقصود من ذلك أن السلطة تقوم على الدوام. فنحن نطيعها في طفولتنا، في صورتها البسيطة، ثم تظل تنمو معنا دون أن تقف عند حد، ومن أعماق التاريخ تصل إلينا، وتغلبنا على أمرنا. وقد قال «يعقوب جريم» Jacob Grimm عن الاعتقاد بالسلطة بأنه: «إرث فطري حمله أباؤنا معهم سنين عديدة ثم نقلوه إلينا. ونحن بدورنا نحافظ عليه لنورثه أبناءنا... وإذا ما حاولنا البحث عن مصدره فإننا نجده قد اختفى في الماضي السحيق وظل في الظلام بعيد عن أعيننا يحجبه الغموض»[٣].

يمكننا القول، إذا صدقنا «جريم»، أن السلطة تأتينا من خارج أنفسنا، وهي تظل تنمو وتنمو، وبمقدار هذا النمو نعيش تحت سطوتها، من جهة، ويختفي، من جهة أخرى، أصلها الذي يزداد غموضا مع كل تقدم لها. فهل معنى ذلك أن السلطة استبدادية؟ وأن أصلها لا يمكن الاهتداء إليه؟

---

(١) نفسه، ص ٢٩٤.

(٢) نفسه، ص ص ٢٩٦-٢٩٧.

(٣) ذكره ياسبرس في المصدر السابق، ص ٢٩٨.

قبل أن نبحث عن الإجابة على هذا السؤال عند ياسبرس يجب أن نشير أولا إلى أن السلطة، كما نظر إليها أغلب الفلاسفة، هي ممارسة الغلبة؛ أي أنها أساسا استبدادية، تقوم على الإخضاع والقمع، وتكرس نوعا من العنف لتتحكم في حرية الفرد. وبهذا المعنى فهي تقوم على جدلية الحرية والعنف. وقد أكد «روسو»، مثلا، على هذه الجدلية في «عقده الاجتماعي»؛ فحرية الإنسان تقترن بالوحدة والانفصال، وهي صفة الإنسان الطبيعي، أما السلطة فلا يمكن أن توجد في حالة الطبيعة، لأنها مرادفة للقهر والتسلط، وملازمة لحالة الحرب التي ينقسم فيها الناس إلى فئة قاهرة، وفئة أخرى خاضعة للأولى[١].

ونحن إذا صدقنا «روسو»؛ فإن ذلك يعني أن السلطة هي نزعة اجتماعية. ولما كان الاجتماع يقوم على الاستبداد، فإن جوهر السلطة يكمن في العنف؛ وهو عنف يزداد مع تقدم الحضارة، وهو ما أكده «بيار كلاستر» في كتابه «مجتمع اللادولة» الذي يرى فيه أن القسر ليس صفة ملتصقة بالسلطة إلا في حضارات الكتابة، وأكده فلاسفة مدرسة فرنكفورت الذين بينوا أن العنف أصبح صفة لازمة للحضارة المعاصرة بما أنها تميل إلى التحكم في ميول الفرد ورغباته، وتؤقلم قراراته وخياراته عن طريق التقنيات المتطورة في المجال الإعلامي[٢].

إن السلطة، كما رأينا وكما نظر إليها أغلب الفلاسفة، استبدادية وترتبط بالسيطرة، وهو ما ذهب إليه «ياسبرس» أيضا، ولكنه، وإن سلم بنتائج نظرية «روسو»، فانه لا يسلم بالمقدمات فهو يعتقد أننا نطلب السلطة لاقتناعنا بأن الحرية غير كافية في ذاتها، ولأن الحرية لا تتحقق تحققا تاما إلا مع السلطة[٣]؛ فالفرد منا لا يعرف واجبه إن عاش مستسلما لأهوائه دون سلطة يخضع لها. ولا تتعارض السلطة والحرية إلا عندما تتسع الهوة بينهما، فتصير الحرية تحكما والسلطة تسلطا وعنفا. إنه يرى، على العكس من «روسو»، أن بين السلطة والحرية نسبة تضايف؛ لأن السلطة لا تستمد بالضرورة مضمونها من العنف، وازدراء الحرية. ولكنه يرى، مع ذلك، أنه من الوهم أن نظن أن السلطة لا تسير إلا مع

(١) فتحي التريكي، الفلسفة الشريدة، مركز الإنماء القومي، بيروت، (ب.ت)، ص ٥٧.
(٢) نفسه، ص ٦٠.
(٣) ياسبرس، مصدر سابق، ص ٣١٤.

الحرية وأنها تبلغ النفوذ دون عنف وأن العنف مجرد شذوذ. ومن الممكن أن نجد دليلا على ذلك في عصرنا - عصر الحرب الباردة والقنبلة الذرية - بل نستطيع أن نرى ذلك في جميع الأوقات، حتى لكأن البشر يظهرون من جراء تسلطهم وإرهابهم بمظهر الشياطين. فغريزة السيطرة والظلم والقتل والاضطهاد والتعذيب هي ذاتها دوما منذ أقدم العصور، والعنف لا يلبث أن ينفجر تفجرا جامحا عقب كل فترة أمن[١].

وما من شك، بالنسبة لياسبرس، أن ذلك يرجع إلى سببين: أما السبب الأول فيعود إلى النسيان، فإن ما تتكبده الأجيال السابقة ثمنا لانتصار الحرية سرعان ما تلقي به الأجيال اللاحقة في زاوية من النسيان فتنغمس من جديد في شهوة العنف. وأما السبب الثاني فيعود إلى رجال السلطة المحترفين الذين لا يفكرون بلغة المسؤولية. فيعملون باسم الحرية ضد شروط الحرية[٢]، ويستمرون في السلطة بفضل العنف والمكر والكذب. ويبدو أن السبب الثاني يترتب على الأول؛ إذ أن الناس عندما لا يدركون قيمة الحرية التي ظفروا بها، فإنه من الطبيعي أن يلقوا بأنفسهم في أحضان العبودية ظنا منهم أن هذا هو التحرر فيعيشون غافلين بطاعتهم العمياء مثلما أعلن الألمان أن طغيان هتلر هو الحرية التي ظفروا بها أخيرا للأمة الألمانية.

لاشك إذن في أن السلطة ترتبط، وخصوصا في عصرنا، بالتسلط؛ الذي يعني استعمال القوة من أجل سيطرة أقلية على أكثرية والحصول على الطاعة باسم سلطة ينبغي أن يعترف بها الجميع[٣]. وعلى العكس من ذلك، يرى ياسبرس أن السلطة الحقيقية لا ترتبط بالقوة التي تأمر بالطاعة وتحصل عليها؛ بل هي ترتبط بالاعتقاد وتقوم عليه، فالسلطة في صورتها الحقيقية أو المثالية قوية دون عنف، باقية دون قسر، وهذا ما يرمز له بالغرب بتمثيل المسيح على الصليب راضيا بالزهد التام في القوة وبالعذاب والهزيمة، ونابذا لكل ماعدا الحب من صور القوة[٤]. ولذلك يجد هذا النوع من السلطة الولاء، ويفرض الطاعة دون قسر.

---

(١) كارل ياسبرس، نهج الفلسفة، ترجمة عادل العوا، دار الفكر، دمشق، ١٩٧٥، ص ٧٥.

(٢) نفسه، ص ٨٠.

(٣) نفسه، ص ٨٣.

(٤) ياسبرس، مدخل إلى الفلسفة، ص ٣١٠.

غير أن هذه السلطة لا يمكن صونها، في نظر ياسبرس، في عصرنا هذا؛ فالتسلط اليوم أكثر إثارة للفزع من أي وقت مضى، إذ أتاح عصر التقنية الفرصة بأن تغذو السيطرة سيطرة مطلقة[١]. وبالفعل، فقد بين «ميشال فوكو» أن السلطة أصبحت إستراتيجية مقننة تحاصرنا من كل الجهات. فهل يعني هذا أن التسلط مبدأ حتمي؟

يرى ياسبرس أن التسلط غير حتمي، وأن الوصول إلى السلطة الحقيقية وصونها لا يتم إلا بإرجاع السلطة إلى مصدرها الصحيح. ونحن إذا سعينا إلى البحث عن هذا المصدر فإننا سنجد، تبعا لياسبرس، أن البشر كانوا، في أغلب الأوقات، مصدر السلطة؛ فالذين يأمرون سائر البشر هم أيضا بشر يطلبون السلطة لأنفسهم، ويدعون لأنفسهم القدرة، والمعرفة، ويدعون أنهم مختارون بصوت الأغلبية. وهم يعتقدون أن الطبيعة الإنسانية تستمد من ذاتها وحدها الحيوية والتبرير، ولذلك فهم ينظمون العالم على هواهم. وبعبارات أخرى؛ السلطة هي الإنسان ولا تتحقق إلا بطاعة الإنسان. وبالنسبة لياسبرس فإن هذه السلطة، التي مصدرها هو الإنسان هي سلطة محدودة؛ فهي لا تعمل إلا على تثبيت النظام في الحياة العملية، وهي تجعلنا نرضى بالخضوع حتى وإن خالفناها الرأي[٢]. وهي في هذه الحالة لا تجد ولاء حقيقيا، وإنما هي مجرد خضوع سواء كان هذا الخضوع له ما يبرره أم خضوعا أعمى. وهي، بالإضافة إلى ما سبق، ليست صحيحة لدى الجميع؛ أي ليست صالحة لجميع البشر، ولذلك فهي تفصم الاتصال بين نفسها وبين غيرها، ولا تهتم إلا بنفسها. وحيث يصير الاتصال محلا للنزاع والشد فلا مناص في النهاية من العنف والحرب[٣].

ونظرا إلى الاعتبارات السابقة يرى ياسبرس أن السلطة لا يمكن أن تكون إنتاجا يصنعه البشر بوسائلهم؛ لأن لكل سلطة بشرية حدودها. ولذلك لا يجوز أن يعهد الإنسان بنفسه كلية إلى أي كائن بشري أو نظام أو قانون من صنع البشر، ولا أن يصف شيئا دنيويا بأنه صالح للبشر جميعا[٤]. إن الوحيد الذي يمكن أن يخاطبنا بلغة لها معنى واحد وتشريع واحد

(١) ياسبرس، نهج الفلسفة، ص ٦٣.
(٢) ياسبرس، مدخل إلى الفلسفة، ص ٣٢١.
(٣) نفسه، ص ص ٣١٢ وما بعدها.
(٤) نفسه، ص ٣١٩.

للكل هو الله. وبناء على ذلك فإن الله هو مصدر السلطة الحقيقية؛ التي تسمح للمؤمنين جميعا أن يتحدوا في الحياة العملية ضد المذاهب التي تدع الكل يعملون وفق هواهم[١].

هذه هي إذن نظرية السلطة عند ياسبرس في خطوطها العريضة. فما الذي يتبين لنا منها؟

يتبين لنا أننا نواجه عند ياسبرس نظريتين مختلفتين للسلطة؛ فهناك من ناحية سلطة صحيحة، مصدرها الله، وهي تعمل على زيادة الحرية، وهناك من ناحية أخرى سلطة زائفة، مصدرها الإنسان، وهي تقضي على الحرية. ومعنى ذلك أن ياسبرس لا يفصل في نظريته بين السياسة والعقيدة، بل يجعل السياسة ترتكز على الوجود الأسمى.

كما يتبين لنا أن ياسبرس سعى إلى التقريب بين السلطة والحرية بدلا من الإبقاء على تعارضهما؛ ذلك أن السلطة تستمد معناها الحقيقي من مشاركتها في توليد الحرية، وهو الأمر الذي فشل فيه معظم الفلاسفة من قبل عندما شوهوا سمعة كل سلطة وحرفوا مفهومها، ونظروا إليها كمقابل مطلق للحرية.

(١) نفسه، ص ص ٣١٩-٣٢٠.